

الرجل العربي المثال عند الشاعرات الجاهليات

د. عبلة الصديق عثمان محمد

الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية

قسم الدراسات الأدبية والنقدية

جامعة أم درمان الإسلامية

تمهيد:

كان المجتمع العربي – قبل الإسلام – برغم جاهليته يقوم على قيم ومبادئ خلقية رفيعة، مثل الكرم، والشجاعة، ونصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف، وحماية المستجير، وغيرها.

وكان المجتمع شديد الالتزام بهذه المكارم والقيم إلى الحد الذي يجعله يخلع من لا يتقيد بها، والخلع هو طرده من الحي ومقاطعته، وإخراجه من المجتمع، ونفيه إلى الصحراء.

وقد حفظ الشعر الجاهلي هذه القيم وتغنى بها الشعراء، وبعضهم عرف بها كزهير، وعنترة، والحارث بن حلزة، وعمرو بن كلثوم، وغيرهم.

فقد مدح الشاعر العربي رجلاً كان أو امرأة هذه القيم، وجعلوا منها مثلاً أعلى للرجل العربي.

موضوع البحث:

وموضوع هذا البحث (الرجل العربي المثال عند الشاعرات الجاهليات). بحثاً عن الرجل المثال في أشعارهن، وبحثاً في القيم المشتركة بين الشاعرة الجاهلية والشاعر الجاهلي، وبحثاً عن القيم الخاصة التي اختصت بها الشاعرة الجاهلية، أو ألحّت عليها في شعرها وعظمت من شأنها أكثر من غيرها.

والبحث كذلك محاولة في ربط هذه القيم بنفسية المرأة العربية، وما تريده من الرجل العربي المثال، ومعلوم أن شعر المرأة في العصر الجاهلي كان في شكل مقطوعات قصيرة، أو قصائد قصيرة. ومعظم أشعارهن وردت في كتب الاختيارات وأيام العرب، وقليل منهن من كان لها ديوان كالخنساء، ومن كان لها ديوان فإن أشعارها فيه لا تخرج عن المقطوعات والقصائد القصيرة كالخرنق أخت طرفة.

ومع هذا فإن أهم ما يميز هذا الشعر هو التغني بالقيم، والمثل العليا عند الرجل العربي.

وبما أن هذا الشعر متشابه في أغراضه ومعانيه، فقد اخترت مجموعة من الشعارات الجاهليات وردت لهن أشعار في مصادر قديمة، مثل حماسة أبي تمام، وأشعار الهذليين، وديوان الخنساء.

والشاعرات الجاهليات يمثلن قبائل مختلفة مثل: الخنساء السلمية، وضُباعة بنت عامر القشيرية، والخرنق البكرية أخت طرفة، والفرعة بنت شداد من بني عذرة، وناجية بنت ضمضم الذبيانية، وجنوب الهذلية أخت عمرو ذي الكلب، وتماضر بنت الشريد السلمية.

والمنهج الذي سأتبعه هو تقسيم الدراسة إلى ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: عرض النصوص وتحليلها.

المبحث الثاني: استخلاص القيم الاجتماعية للرجل العربي المثال.

المبحث الثالث: استخلاص القيم الخُلقية للرجل العربي المثال.

وسبب هذا التقسيم أنني وجدت الرجل العربي المثال عند الشاعرة العربية القديمة مجموعة من السلوكيات والقيم اهتمت بها الشاعرة في شعرها، وتمدحت بها دون الأغراض الأخرى، لأن غالب شعرها جاء في غرض الرثاء فهي في رثائها تستدعي هذه القيم التي فقدت بفقد هذا الرجل المرثي.

المبحث الأول: عرض النصوص وتحليلها:

الشاعرة العربية الفذة نجدها دائماً تعشق المكارم في الرجل المثال، وتحب المثل والقيم العربية التي تتمثل في الشجاعة، والكرم، والجرأة، والجمال، والسيادة، وما يتميز به الرجل العربي المثال من خصال حميدة، وشمائل رفيعة، وأخلاق عالية، عندما يكون الرجل هو الجواد السخي الذي يلجأ إليه الناس في الشدائد. وكذلك تشيد بقدرته القتالية المختلفة ولا سيما فروسيته الظاهرة في وقت الحرب.

فتصفه بالشجاعة والثبات واقتحامه لصفوف الأعداء، وكذلك الانتصارات، وغيرها، أو نجدها تصفه وصفاً حسيماً ومعنوياً في رثائها له.

فعندما تبكي المرأة موت الأقارب والأعزاء ولا سيما الأخوان، لأن فقدان الأخ مأساة عظيمة، بوصفه سند أخته وعمادها الذي لا يحل أحد محله، تظهر صفاته المثالية في شعرها.

فالشيء المعروف أن الأمة العربية احتفظت بتراث ضخم من المراثي، ومعظمها تميز بصدق اللوعة وحرارة العاطفة، وقد اقترن هذا الفن بالشاعرة الخنساء التي عاشت في الجاهلية وعصر صدر الإسلام، وهي من أبرز شواعر العرب

المشهورات، وهي شاعرة ذات حس مرهف وشعور وافق المشاعر الإنسانية، والمحبة الصادقة.

قال ابن رشيقي: "والنساء أشجى الناس قلوباً عند المصيبة وأشدهم جذعاً على هالك، لما ركب الله - عز وجل - في طبعهن من الخور وضعف العزيمة"¹ فشعر الخنساء شعر أحزان مثل تجربة حقيقية لا يشوبها تكلف، ولا زيف ولا إطراء، وإنما هو منبثق من ينبوع لهجتها الصادقة وعميق أساها، فكان لهذه التجربة شأن في إبراز تفجّعها.

وقد أبدعت الخنساء في وصف "صخر ومعاوية" عندما رثتهما، فوصفتها بصفات جليلة وخصال حميدة، معبرة عن حزنها، وبفقدتهم انتهى كل معروف، فهم الشجعان الأبطال.

وطبيعة العرب آنذاك كانت تتطلب الشجاعة والقوة والإقدام وركوب المخاطر، ولعل الذي دعاهم إلى هذا، طبيعة الحياة المضطربة القائمة على الغزو والغارة، لأنها السبيل الوحيد للحياة الكريمة عندهم، لذلك نجد الخنساء بدأت بالشجاعة لأهميتها عندها، إذ إنها وسيلة الدفاع عن القبيلة في السلم بسيرته الطيبة، وفي الحرب بانتصاره على الأعداء، فنجدها تصور شجاعة أخيها معاوية التي تزيد عن شجاعة الآخرين، فتقول:

إِذَا طَرَقَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِدَاهِيَةِ	إِذَا طَرَقَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِدَاهِيَةِ
وَتَخْرُجُ مِنْ سِرِّ النَّجِيِّ عِلَانِيَةَ	وَتَخْرُجُ مِنْ سِرِّ النَّجِيِّ عِلَانِيَةَ
إِذَا مَا عَلَنَتْهُ جُرْأَةٌ وَعِلَانِيَةُ	إِذَا مَا عَلَنَتْهُ جُرْأَةٌ وَعِلَانِيَةُ
إِذَا شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا وَهِيَ ذَاكِيَةُ	إِذَا شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا وَهِيَ ذَاكِيَةُ
سَعَالٍ وَعِقْبَانٍ عَلَيَّهَا زَبَانِيَةُ	سَعَالٍ وَعِقْبَانٍ عَلَيَّهَا زَبَانِيَةُ
عَلَى حَدَثِ الْإِيَّامِ الْكَمَاهِيَةَ	عَلَى حَدَثِ الْإِيَّامِ الْكَمَاهِيَةَ
عَلَيْكَ بِحَزْنٍ مَا دَعَا اللَّهُ دَاعِيَةَ ²	عَلَيْكَ بِحَزْنٍ مَا دَعَا اللَّهُ دَاعِيَةَ ²

تتوالى هذه الكلمات "توالياً ملحوظاً" يعكس مدى رغبة الشاعرة في إبراز حزنها وفجيعتها وحجم الخسارة التي لحقت بها خاصة بعد رحيل أخيها الذي كان مصدر سعادتها وسندها ومانع الضيم عنها"³ فهي تؤكد أن معاوية لا مثيل له إذا حلت النوائب والمصائب على الناس، لعلمها به وبشجاعته ومآثره، وإغاثته للملهوف، فهو الفارس الشهم البطل، وتظهر بطولته وشجاعته إذا احتدم غضبه فيندفع بجرأة

وإقدام. وتقسم بأن لن ينفك دمعها ولن يتوقف عويلها على أخيها، وهذا نابع من ارتباطها الوثيق به، لذا صورت لنا كل الصور في صورة حسية ملموسة.

فلمسنا وشعرنا بالانفعال الحزين، وهزّ وجداننا رنينها المثير الذي هو أشبه بالنواح. ونجدها عندما تبكي أباها صخراً تشيد بشجاعته وبقدرته القتالية في وسط المعركة وطعنه العدو وهو على ظهر فرسه وذلك بقولها:

يا عَيْنِ ابكي فارساً	حسنَ الطَّعَانِ على الفرسِ
ذا مرّةٍ ومهابةٍ	بيننا نؤمّلهُ اختلس
بيننا نراه باديماً	يَحْمِي كَتِيبَتَهُ شَرَسِ
كاللَّيْثِ خَفَّ لِغِيْلِهِ	يَحْمِي فَرِسَتَهُ شَكِسِ
يذُرُ الكميَّ مجدلاً	تربَ المناحرِ منقـعـسِ
خضبَ السّنَانِ بطعنةٍ	فالنَّفْسُ يحفرها النَّفْسِ
فالطَّيْرُ بينَ مرادٍ	يدنوُ وآخرَ منتـهـسِ
نِعْمَ الفتَى عِنْدَ الوَعَى	حينَ النَّصايحِ في الغلسِ
فلا بُكَيْتَكَ سَيِّداً	فصلَ الخطابِ إذا التبسِ
مَنْ ذا يَفُومُ مَقامَهُ	بعدَ ابنِ امِّي اذْ رَمَسِ 4

فظمأها للبكاء لا يروي أو يستعيد ربه، لذلك هي تريد من عينيها أن تظلا باكيتين، فالحزين المتألم لا بد له أن يبكي تعبيراً عن هذا الحزن، وتخفيفاً عن لوعته وحرقة الألم الناتج عن الفقد الدائم، فهذه الأمنية تشد انتباه السامعين وتحرك نفوسهم تجاه الحدث، لذا "تكاد لا تخلو قصيدة، أو مقطوعة رثت بها أخويها صخراً ومعاولية، وخاصة صخراً، من استهلال هذه المقطوعة، أو تلك القصيدة ببيت أو بيتين أو ثلاثة، أو أكثر بالبكاء فعلاً، أو باستدرار الدمع... تعبيراً عن الحزن وتبياناً لعاطفة الحب الأخوي الذي جمع بين الأخ والأخت، لا بل إن عاطفة الحزن والبكاء لتصل أحياناً إلى حد التفجع، والتوجع والتأسف، والتلهف والتوله إزاء هذه المصيبة، مصيبة التفجع التي لا تعدلها مصيبة"⁵فهنأ تأمر عينها بأن تبكيه لفروسيته البارزة، وجودته في طعن العدو وهو على ظهر فرسه، وحينما يعدو في ساحات القتال فلا يحاربه في ذلك فارس من الفرسان، وهذه صورة مثالية رسمتها الخنساء لأخيها صخر وهو يجيد القتال على ظهر الفرس. وهو يزود عن كتيبته بشراسة (والشراسة هي عادة في الحيوانات المتوحشة للدفاع عن قطعانها) فاستعارتها الخنساء لتبين

كيفية شجاعة أخيها ودفاعه عن حاميته بكل قوة ولو اضطر للتعامل بسوء الخلق. كما وصفته بالليث المعاند؛ لتعبر عن شجاعته وهي صفة ملازمة له، هذه الصفات وصلت إلى ذروة الجدارة الذاتية باستيعابه لكثير من الخبرات التي لا ينهض بها غيره، ولا سئماً حسن قيادته للأمور، وحلمه وسرعة بديهته في كل ما التبس من المعضلات، متفوقاً على الجميع سواء من مات منهم، أو حضر، فتؤكد بكاءها عليه بهذه الأبيات التي مزجت بين ثنائها الحسن وبكائها المتفجع على صخر، وهذا من أحسن المرثي "إذ خلط فيه مدح بتفجع على المرثي، فإذا وقع ذلك بكلام صحيح ولهجة معربة ونظم غير متفاوت، فهو الغاية"⁶.

وإذا كانت الدمعة تذهب اللوعة. فلجأت إليها الخنساء كثيراً في قصائدها مصرة على البكاء تحت عينيها على ذلك وربما تساءل عينيها في عدم البكاء والجمود في استنكار، فيجمد ماء العين ويجف دمعها عندما تذهل النفس وتفاجأ بالمصاب الشديد، فنراها تقول:

أعينيّ جوداً ولا تجمّدا	ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجريء الجميع	ألا تبكيان الفتى السيّد
رفيع العماد طويل النجاد	ساد عشيرته أمردا
إذا القوم مدّوا بأيديهم	إلى المجد مدّ إليه يدا
فنال التي فوق أيديهم	من المجد ثم انتمى مُصعدا
ويحمل القوم ما عالهم	وإن كان أصغرهم مؤلدا
جموع الضيوف ألى بيته	يرى افضل الكسب ان يحمدا ⁷

في هذه الأبيات تخاطب الشاعرة عينيها وتامرهما بالبكاء المتواصل، لأن صخراً يستحق بكاءهما؛ لصفاته المميزة التي توجب عليهما حق البكاء بصورة التودد والتلطف وبصورة بعيدة كل البعد عن الشدة والعنف، فهي بعد الطلب تعدد مناقب الفقيد، ألا تبكيان لصخر الندى؟ ألا تبكيان الجريء الجميع؟ ألا تبكيان الفتى السيّد؟ لتعلل سبب طلبها وكأن هناك علاقة بين عيناها وإحساسها الداخلي، قائلة: يا عيني اسكبا دمعكما سخياً ولا تبخلا به، أليس حرياً بكما البكاء على فقد الكريم الجواد؟ ألا تذرفان الدمع على من كان شجاعاً مقداماً؟ ألا تبكيان لفقد زعيم القوم وسيدهم؟ فنرى الاستنكار والاستفهام، وهما ظاهرة أسلوبية فنية لافتة في شعر الخنساء، حيث نرى التفاعل الحوارى الذي أقامته الشاعرة مع ذاتها، والمتأمل لحياتها يجدها مليئة بالبكاء والانفعال وكان البكاء وما يثيره من نوازع هو السلوة الوحيدة لها، ويعد

الاستفهام ذا طاقة وقدرة في إثارة المتلقين، ورسم تداعي الخواطر التي تلح على ذات الشاعر، فهي تستعذب البكاء وتصر على رغبتها في الاستمرار فيه، لذلك أحسنت الخنساء استخدام الاستفهام في التعبير عن حزنها وألمها وما أصابها في فقيدها، فكانت تساؤلاتها قرعاً للنفوس ومؤثرة تُصيب من كان مكلوم الفؤاد، فاقداً الأحبة. وقد استخدمت الخنساء مع العين أسلوب الأمر كذلك، وهذا الأسلوب يدل على حرص الشاعرة على مخاطبة أمر، لتستجيب وتلبي وتحقق الطلب، لأن العين هي بصيرة الإنسان، لذلك "ركزت عليها، لأنها ينبوع الدموع ومستودع أمارات الحزن التي يمكن أن يعبر عن مدى التأثير، وتكاد تشكل جزءاً كبيراً من أدوات الرثاء الأساسية التي اعتمدها في المطالع ومن الطبيعي أن تأخذ مساحة في هذه المطالع، لأنها الرمز الكبير الذي يوحي بالبكاء وتُعبّر عن مشاعر الحزن"⁸.

وهذه سُمية زوجة شداد بن قراد (والد عنزة الشاعر)، تراثه فتقول واصفة لخصاله:

جفان الكرى وأنا في الغسق	وساعدني الدمع لما اندفق
لفقد همام مضى وانقضى	وقد زاد مني عليه القلق
فمن بعد شداد يحمي الحرير	إذا الحرب قامت وسال العرق
ومن يردع الخيل يوم الوغى	ومن يطعن الخصم وسط الحدق
ومن يكرم الضيف في أرضه	ومن للمنادي إذا ما زعق
لقد صرت من بعد في ضنى	وقلبي لأجل الفراق احترق ⁹

بكت الشاعرة فأذرفت الدموع وأظهرت الحزن على زوجها البطل الهمام، الذي كان يحمي النساء وقت اشتداد المعارك، فهو فارس شجاع يطعن العدو في عينه ولا يهابه، وهذا دليل على قوته وشجاعته وعدم خوفه من العدو أياً كان، وأخبرتنا أنه كان كريماً مضيافاً، وقد احترق قلبها بعد فراقه، وهذه مشاعر نبيلة نجدها في زوجة تحب زوجها، وتحزن عليه بعد موته. فبكاؤها عليه بدمع دافق، حيث لا شيء تعبر به عن فقدتها له غير الدمع، وأن مصابها عظيم، سيطر عليها الحزن، فأصبحت في ضنى من فقده، وسهر دائم ولا يأتيها النوم، فبكاؤها مصحوباً بالتلهف والحسرة.

فتجربتها تجلت لنا على أكمل وجه، باعتبارها تجربة إنسانية مأساوية مؤلمة بعد رحيل زوجها شداد، فهي لم تعد كما كانت سابقاً تعيش بماض مجيد بوجود هذا الرجل وفي سرور وهناء، إذ سرعان ما أصبحت امرأة تعيش في ضنك وقلبها محترق بفراقه.

ومما لا شك فيه أن مشاركة المرأة في غرض الرثاء قد أسهم إسهاماً فاعلاً في اغناء ديوان العرب بهذا اللون الشعري المتميز.

وربما هذا متأت من طبيعة المرأة الوجدانية بوصفها أكثر ميلاً للحزن والأسى والبكاء على عكس الرجل الذي فرضت عليه الأعراف الاجتماعية أن يتسم بالصبر والجلادة والتحمل، ولكون العرب كانت تعير من يبكي من الرجال كما أوضح ذلك المهلهل بن ربيعة في قوله:

يُبْكَى عَلَيْنَا وَلَا نَبْكَى عَلَى أَحَدٍ لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنَ الْإِبِلِ¹⁰

وعمر بن معد يكرب في قوله:

وإِنَّا لَقَوْمٌ لَا تَفِيضُ دُمُوعَنَا عَلَى هَالِكٍ مِنَّا وَإِنْ قَصَمَ الظَّهْرُ¹¹

أما ضباعة بنت عامر القشيرية زوج هشام بن المغيرة سيد قريش في الجاهلية، تقول راثية له ومعددة خصاله الكريمة، وإكرامه للضيف، ومبينة من خلال وصفها له إبراز الصفات الخلقية والخلقية:

إنك لو وألت إلى هشام أمنت وكنت في حرم مقيم

كريم الخيم خفاف حشاه ثمال لليتيمة واليتيم

ربيع الناس أروع هبرز يأبى الضيم ليس بذني وصوم

أصيل الرأي ليس بحيدري ولا نكد العطاء ولا نميم

ولا خذالة إن كان كون دميم في الأمور ولا مليم

ولا متنزع بالسوء فيهم ولا قذع المقال ولا غشوم

فأصبح ثاويماً بقرار رمس كذاك الدهر يفجع بالكريم¹²

الشاعرة هنا لم تظهر البكاء ولا نرف الدموع، ولكنها أخبرتنا بأن زوجها كان ذا رأي سديد وكريم مضياف، ومن ثم وقفت على كل مناقبه فعدتها فقالت: يؤمن ضيفه، وكريم الطبع والسجية، وغيث لليتامى ذكوراً وإناثاً، يأبى الضيم في كبرياء وشمم، جميل الوجه، ليس فظاً غليظاً، وهو في الحوادث والخطوب غير خذال، ولا يرتكب من الذنوب ما يجعله يُلام من أحد، ولا يميل إلى السوء والفحشاء أبداً، وهو بعيد عن الظلم كل البعد.

وهذه الصفات الحميدة على كثرتها يبدو أنها كانت متوفرة في هشام بن المغيرة؛ لأنه كان شريفاً مذكوراً، وزعموا أن قريشاً كانت تؤرخ بموته، فتقول: عام مات هشام. ويكون دور ضباغة هنا هو صياغة هذه الخصال في قالب شعري، وأنت الأبيات خالية من لواعج الحزن والأسى ومن الحسرة والمرارة وربما يكون ذلك سبب درجة القرابة، فرثاء الأب أو الأخ أو الابن يختلف كلية عن رثاء الزوج.

فهي لم ترثه بالشجاعة؛ لأن قريشاً لم تكن لها أيام في الجاهلية فقد كانت مستقرة، فعرفت القبيلة بالكرم، والسخاء، ورجاحة الرأي، والشرف، لأنها قبيلة حضرية وليست بدوية.

والشجاعة صنو الكرم وهي من الصفات التي أحبها العربي في جاهليته ونشأ على تعلمها بحكم بيئته، ومن الصفات المرتبطة بالشجاعة: الحياء والعفة، والصبر، والجرأة والإقدام، والشاعرة إذا فقدت عزيزاً عليها يخرجها حزنها عن حد الاعتدال والوقار إلى البكاء والأنين فهي "تشعر بلطمة مروعة تُصوّب إلى قلبها، فقد أصابها القدر في فلذة وقطعة من نفسها، فتترنح من هول الصدمة، فيفيض شعرها على صفحة نفسها كلمات باكية، وصوراً شعرية مثيرة تبتعد في جملتها عن الصنعة والافتعال"¹³ فالشجاعة هي أبرز قيمة خلقية في وصف البطل.

أما إذا رجعنا للشاعرة الخنساء فنجدها تجمع كل الصفات المثالية في الرجل، مثل الشجاعة، والعفة، والكرم، وجمع شتات القوم، والرفعة، والحلم، وكذلك السيادة وإغاثة المهوف، وغير ذلك في أبيات، فتقول فيها:

السَيِّدُ الْجَحَّاجُ وابْنُ السَّادَةِ الشَّمِّ الْجَحَّاجِ

الحاملُ النَّقْلَ المَهْمَّ مِنْ المُلِمَّاتِ الفَوَادِحِ

الجابرُ العَظْمَ الكَسِيرَ مِنْ المَهَاصِرِ وَالمَمَانِحِ

الواهبُ المِنَّةَ الهِجَانَ مِنْ الخَنَازِيذِ السَّوَابِحِ

الغافِرُ الذَّنْبَ العَظِيمَ لذي القَرَابَةِ وَالمَمَالِحِ

بتَعَمُّدٍ مِنْهُ وَحَلِمٍ حِينَ يَبْغِي الحَلْمَ راجح¹⁴

الخنساء هنا تجمع الصفات المثالية للرجل في أخيها صخر: أنه سيد وابن سادة، وهو أهل لأن يحمل أعباء الأمور الصعبة الثقيلة التي لا يقوم بها إلا الأشداء، صخر جابر العظام الكسيرة، وجامع لشتات القوم، ويهب الإبل الجيدة الرفيعة النجيبة، يحلم عن ذي القرابة فيغفر ذنبه. فصخر ليس سيداً فحسب، بل هو سيد مسارع إلى المكرمات وسائر على طريق آبائه من بني سليم، فأباؤه سادة أعزاء وأصحاب

شرف، حيث يحملون أعباء القوم من مهمات الأمور، ولكن صخراً يحمل الثقل المهم أي "الحمل الثقيل" وليس الحمل فقط، ولكن الحمل الذي ينوء به الحامل.

تواصل الخنساء في وصف أخيها صخر فقالت: الجابر العظم الكسير. هنا صورة حسية حيث تصف حذبه، وعطاءه، وشدة حاجة المحتاج، ورفقه بالضعيف، ونصرته للمظلوم، وإغائته الملهوف. وهذا يدل على اكتمال رجولته من أعمال البر والخير والشفقة.

فصخر يهب خيل كراماً هجاناً (فحولاً) وخناذيد سوابح، وهذا يدل على فرط سماحة النفس وكرم الطبع. حيث أنه يعمد في هباته إلى حر ماله فينتقي جيادها، ولا يتيمم الخبيث.

ثم تقول عنه أنه حلیم متسامح يغفر الذنوب العظيمة لذي القرابة.

فلجأت إلى هذه الأوصاف؛ لأنها ذهبت بذهابه، فلم يصبح في القوم بعده من يجيب النداء، ولا من يحمي الحمى، ويغيث الملهوف ويفك العاني، وكذلك عطاءه الذي كان للسائل والأرامل والأضياف حين تُسد في وجوههم السبل وتضيق بهم الحياة، فكل هذه الفضائل والمكارم قد دفنت وضاعت الأخلاق النبيلة.

ونذهب إلى شاعرة أخرى هي: الخرنق بنت بدر بن هفان بن مالك من بني ضبيعة، البكرية العدنانية، توفيت سنة 574م. شاعرة من الشهيرات في الجاهلية، وهي أخت طرفة بن العبد لأمه، تزوجها بشر بن عمرو بن مرشد سيد بني أسد وقتله بنو أسد يوم قلاب (من أيام الجاهلية)، فكان أكثر شعرها في رثائه ورثاء من قتل معه من قومها ورثاء أخيها طرفة.

يَارُبَّ غَيْثٍ قَدْ قَرَى عَازِبٍ أَجَشَّ أَحْوَى فِي جُمَادَى مَطِيرٍ
قَادَ بِهِ أَجْرُدُ نُو مِيعَةَ عِبْلًا شَوَاهُ غَيْرُ كَابِ عَثُورِ
فَأَلْبَسَ الْوَحْشَ بِحَافَاتِهِ وَالتَّقَطَ الْبَيْضَ بِجَنْبِ السَدِيرِ
وَقَدِمَا يُعْجَلُ الْبَازِلُ الدَّ كَوْمَاءَ بِالْمَوْتِ كَشْبِهِ الْحَصِيرِ
يَبْغِي عَلَيْهَا الْقَوْمَ إِذْ أَرْمَلُوا وَسَاءَ ظَنُّ الْأَمْعَى الْقُرُورِ
أَبَ وَقَدْ غَنَّمَ أَصْحَابَهُ يَلُوي عَلَى أَصْحَابِهِ بِالْبَشِيرِ¹⁵
وتقول أيضاً:

أَعَاذْتِي عَلَى رِزءِ أَفِيقِي فَقَدْ أَشْرَفْتَنِي بِالْعَذْلِ رِيقِي
أَلَا أَقْسَمْتُ أَسَى بَعْدَ بَشِيرِ

ويعدّ الخير علقمة بن بشرٍ
وَبَعْدَ بني ضبيعة حَوْلَ بشرٍ
مَنْتَ لَهُمُ بوالبة المنايا
فكم بقلاب من أوصالٍ خرقٍ
ندامى للملوكِ إذا لقوهمُ
همُ جدعوا الأنوفَ وأوعبوها
إذا نزتِ النفوسُ إلى الحلوقي
كما مَالَ الجذوعُ من الحريقِ
بجنبِ قلابِ للحينِ المسوقِ
أخي ثقةٍ وجمجمةٍ فليقي
حُبوا وسقوا بكأسهمُ الرحيقِ
فما ينسأغُ لي من بعدُ رريقي¹⁶

أما الفارعة بنت شداد أخت مسعود بن شداد المكنى بأبي زرارة من بني عذرة،
قالت في رثاء أخيها مسعود بن شداد:

يا عين بكى لمسعود بن شداد
يا من رأى بارقاً قد بت أرمقه
برقاً تلاً لأغورياً جلست له
بتنا وباتت رياح الغور تزجله
ألقى مرسي غيث مسبل غدقٍ
أسقى به قبر من أعني وحُبَّ به
من لا يذاب له شحم السديف ولا
ولا يحل إذا ما حل منتبذاً
قوال محكمة نقاض مبرمة
قتال مسغبة وثاب مرقبمة
حلال ممرعة حمال مضلعة
حمال ألوية شهاد أنديمة
جماع كل خصال الخير قد علموا
يا زرارة لا تبعد فكل فتى
هلا سقيتم بني جرم أسيركم
نعم الفتى ويمين الله قد علموا

بكاء ذي عبرات شجوه بادي
يسري على الحرة السوداء فالوادي
ذات العشاء, وأصحابي بأفناد
حتى استتب تواليه بأنجاد
دان يسح سيوباً ذات إرعاد
قبراً إلى ولو لم يفده فـادي
يجفو العيال إذا ما ضن بالزاد
يخشى الرزية بين المال والنادي
فتاح مبهمة حبـاس أوراـد
مناح مغلبة فكاك أقيـاد
فرج مفضعة طلاع أنجاد
شداد أوهية فراج أسـداد
زين القرين نكال الظالم العادي
يوماً رهين صفيحات وأعواد
نفسى فداؤك من ذي كربة صادي
يخلو به الحي أو يغدو به الغادي

هو الفتى يحمد الجيران مشهده
الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها
والسائبى الزق للأضياف إن نزلوا
لاه ابن عمك لا أنساك من رجل
عند الشتاء وقد هموا بإخماد
مثنعجر بعد ما تغلي بإزباد
إلى ذراه وغيث المحوج الجادي
حتى يجيء من القبر ابن مباد¹⁷
أما جنوب الهدلية، قالت ترثي أباها عمراً ذا الكلب الهدلي:

أبلغ هذيلاً وأبلغ من يبلغها
بأن ذا الكلب عمراً خيرهم حسباً
الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها
والتارك القرن مصفراً أنامله
تمشي النسور إليه وهي لاهية
والمخرج الكاعب العذراء مذعنة
فلن تروا مثل عمرو ما خطت قدم
عني حديثاً وبعض القول تكذيب
ببطن شريان يعوي حوله الذيب
مثنعجر من نجيع الجوف أسكوب
كأنه من رجيع الجوف مخضوب
مشي العذارى عليهم الجلابيب
في السبي ينضح من أردانها الطيب
وما استحنت إلى أوطانها النيب¹⁸

وقالت سليمة بنت المهمل: وهي سليمة بنت عدي بن ربيعة التغلبي الملقب بالمهمل. كان أبوها من أبطال العرب في الجاهلية، وكان ميالاً إلى اللهو والشرب ولكنه انقطع عنهم ليثأر لأخيه كليب، وما زال حتى مات مأسوراً حوالي عام 531م.

أعيني جوداً بالدموع السوافح
أعيني أن تغن الدموع فأوكفا
ألا تبكيان المرتجى عند مشهد
عدياً أبا المعروف في كل شتوة
رمته بنات الدهر حتى انتظمنه
وقد كان يكفي كل وغد مواكل
كأن لم يكن في الحي حياً ولم يرح
ولم يدعه في النكب كل مكبل
بكيته إن ينفع وما كنت بالتى
على فارس الفرسان في كل صافح
دماً بارفضاض عند نوح النوائح
يثير مع الفرسان نفع الأباطح
وفارسها المرهون عند التكافح
بسهم المنايا إنها سر رائح
ويحفظ أسرار الخليل المناصح
إليه عفة الناس أوكل رائح
لفك إسرار أودعي عند صالح
ستسلوك يا ابن الأكرمين الجاحج¹⁹

وقالت في رثاء أبيها:

منح الرقاد لحادث أضناني
لما سمعت بنعي فارس تغلب
كفكفت دمعي في الرداء تخاله
جزعاً عليه وحق ذلك لمثله
والمرتجى عند الشدائد إن غدا
والمستغيث به العباد ومن به
لهفي عليه إن توسط معضل
لهفي عليكم إذا البيتيم تخاذلت
فاذهب إليك فقد حويت من العلى
فلأبكينك ما حبيت وما جرت

وونى العزاء فعادني أحزاني
أعني مهلهل قاتل الأقران
كالدرا إن قارنته بجمان
كهف اللهيف وغيثة اللفهان
دهر حرون معضل الحدثان
يحمي الذمار وجورة الجيران
حصن العشيرة ضارب بجران
عنه الأقارب أيما خذلان
يا ابن الأكارم أرجح الراجحان
هوجاء معطفة بكل مكان²⁰

أما تماضر بنت الشريد السلمية كانت زوجةً لزهير بن جذيمة ملك غطفان العبسي من عيلان فمضرت. قتل ولدها مالك بن زهير العبسي على يد حذيفة يوم الهبأة من أيام داحس والغبراء، فقالت ترثيه:

كأن العين خالطها قذاها
على ولدٍ وزين الناس طراً
لئن حزنت بنو عبس عليه
فمن للضيف إن هبت شمال
أسيدكم وحاميكم تركتم
ترى الشم الجحاجح من بغيض
فيتركها إذا اضطربت بطعن
حذيفة لا سقيت من الغوادي
كما أفجعتني بفتى كريم
فدمعي بعده أبداً هطول

لحزن واقع أفنى كراها
إذا ما النار لم تر من صلاحها
فقد فقدت به عبس فتاهها
مزعزة يجاوبها صداها
على الغبراء منهتماً رهاها
تبدد جمعها في مصطلاها
وينهبها إذا اشتجرت قناها
ولا روتك هاطلة نداها
إذا وزنت بنو عبس وفاها
وعيني دائم أبداً بكاها²¹

الشاعرة عندما تصف أباها أو أبنها، أو زوجها، أو أبها بعد موته تبين لنا صفاته الخلقية من كرم، وشجاعة، ووفاء وغيرها من الصفات المعنوية. ثم تلقى عليه عواطفها التي تشكل أهم دوافع الرثاء.

ومن ثم تذكر أن بموته ماتت هذه القيم وأهمها الكرم. فتتحدث عن الأوقات التي كان يقدم فيها الرجل العربي كرمه وهي من أصعب الظروف، كأوقات الجذب وليالي الشتاء الباردة، مما يدفع الناس دفعاً إلى التماس النار والدفء، كذلك وقت هبوب الرياح العاتية، فيستجيب لهم هذا الرجل الكريم السخي، فيأوي إليه الجائعون، والأرامل، واليتامى، والضعاف، فبموته يترك أثراً كبيراً ولوعة شديدة على كل من شملتهم أياديه.

ودختنوس بنت لقيط بن زرارة، سميت على اسم ابنة كسرى. تنتمي إلى بني دارم من تميم. كان زوجها عمرو بن عمرو بن عدس. توفيت نحو عام 30 قبل الهجرة.

قالت ترثي أبها وقد قتل يوم شعب جبلة وكان يوماً شديداً بين عبس وذبيان:

بكر النعي بخير	خندف كهلها وشبابها
وأضرها لعدوها	وأفكها لرقابها
وقريعها ونجيبها	عند الوغى وشهابها
ورئيسها عند الملوك	وزين يوم خطابها
وأتمها نسباً إذا	رجعت إلى أنسابها
فرع عمود للعشيرة	رافع لنصابها
ويعولها ويحوطها	ويذب عن أحسابها
ويطا مواطن للعدو	وكان لا يمشى بها
فعل المدل من الأسود	لحينها وتبابها
كالكوكب الدرّي في	ظلماء لا يخفى بها
عبث الأغر به	وكل منية لكتابها
فرت بنو أسد فرار	الطير عن أربابها
لم يحفظوا حسباً ولم	يأووا لفيء عقابها
عن خيرها نسباً إذا	نصت إلى أنسابها ²²

كل هذه الأبيات التي ذكرتها حوت جانب الشجاعة والمجد والسيادة، والحلم الذي يعرف بإمساك النفس في حالة انفعالها وشدة هيجانها من حدة الغضب. وكذلك الكرم، لأهميته في حياة العربي بسبب ارتباطه بالفروسية والسيادة، وكذلك طبيعة البيئة القاسية، فهو شعور إنساني، ومع مرور الأيام والزمن تحول إلى واجب إنساني يدفع بصاحبه للعطاء المستمر، فشهرة الكرم والجود لا تنتهي.

فالرجل الكريم المثال، كرمه لا ينقطع وعطاءه في ليالي الشتاء الباردة لا ينفد، وعطفه على الأرامل واليتامى، وكذلك المحتاجين، يعتبر شيء ملموس ومتأصل فيه. وإذا تحدثنا عن الكرم في شعر الشاعرات العربيات نجده دائماً تصحبه صفة الشرف والسيادة.

هذه الصفات الحميدة التي يتمتع بها الرجل العربي المثال، والتي تلقي عليه المهابة والشرف فيعرف بها بين قومه، ويتعامل بها مع سادات العرب.

فالسيد العربي يتصف بالعقل الرزين والحلم، والرؤية في التعامل. وهؤلاء السادة الأشراف يميلون إلى الطهارة والعفة والكرم، فهذه الخصال قد يتصف بها كثير من الأفراد ولكن لا تجتمع إلا لصاحب الشرف الرفيع، والسيد المطاع، أو زعيم القوم.

ويعد الكرم من مكارم الأخلاق وهو من القيم الأصيلة التي تميل إليها الفطرة الإنسانية. فالرجل العربي تفاخر وافتخر بهذه الصفة الجميلة، والخصلة الأسمى، والوصف الأمثل الذي يُمدح به الملوك.

لذا أنشدت الشاعرة ناجية بنت ضمضم الذبياني: أبوها ضمضم المكنى بأبي الحصين المري. قتله عنتره العبسي في حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان. كما قتل هرم بن ضمضم في تلك الحرب، وافتخرت بأبيها ضمضم، فوصفت كرمه وعطاءه الفياض وشجاعته، وفصاحة لسانه عندما يخطب القوم، وحكمته في الخطابة. كذلك وصفت كرمه وأبرزت صورة الكرم في صورة جميلة رائعة فتجلت في كرمه في الأوقات العصيبة وأزمة الشتاء الباردة التي تعوي فيها الرياح، وتذري بقايا أوراق الشجر التي يخلفها الخريف على أغصانها فتصبح هشيماً، حيث لا مطر نازلاً ولا بهيمة ترعى، ففي هذا الوقت يهب ماله كله ولا يبخل عليهم بما يشبع بطونهم، فبيته مأوى للأرامل واليتامى، وكذلك الخصم الألد إذا تفوضح في الخصومة. فقالت:

لنا ويكفيـنا العظيمة	الواهب المال التلاد
نزلت مجلجلة ذميمة	ويكون مدركننا إذا
ولم تقع في الأرض ديمة	واحمر آفاق السماء

وتعذر الأكال حتى	كان أحمدها الهشيمة
لا تلة ترعى, ولا	إبل, ولا بقر مسيمة
ألفيته مأوى الأرامل	والمدفة اليتيمة
والدافع الخصم الألد	إذا تفوضح في الخصومة
بلسان لقمان بن عاد	وفصل خطبته الحكيمة
أجمتهم بعد التدافع	والتجاذب في الحكومة ²³

وأيضاً نجد العفة التي حرص عليها العربي وافتخر بها؛ لاتصافه بها، وهي ترفع الإنسان عن كل ما يسيء إليه، أو يخدش كرامته. وفي ذلك قالت أم بسطام الشاعرة العربية وتحدد صفة العفة في الرجال تصحبها الشجاعة في وقت الحرب:

لا يبعدن قومي الذين هم	سم العداة وآفة الجزر
النازلون بكل معتركٍ	والطيبون معاقد الأزر
الضاربون بحومةٍ نزلت	والطاعنون وخيلهم تجري ²⁴

تحدثت الشاعرة عن قومها واصفة أهم الصفات التي يتصف بها الرجل العربي وهي صفة الشجاعة والقوة عندما تصبح سماً قاتلاً، وآفة تفتك بكل ما تلم به، وكذلك شجاعتهم في وسط المعركة وهم في حالة ضرب بالسيف أو طعن بالرمح، مع جري الخيول وسرعتها وهذه صورة جمالية رائعة تجعلنا نتخيل تلك المعركة ونعيش معها.

ومن ثم تنسب الطيبة والطهر للأثواب ومعاقد الأزر، فهي رموز تعتبر جديدة في معنى العفة بالنسبة للرجل العربي.

فهؤلاء الشاعرات وصفن الرجل المثال بالصفات التي رأينها فيه؛ لأنه أحب الناس إليهن واستحق ذلك لأمر منها: أنه كان موصوفاً بالحلم، ومشهوداً له بالجد، ومعروفاً بالتقدم في الشجاعة، وغيرها.

المبحث الثاني: استخلاص القيم الاجتماعية:

القيم عبارة عن معتقدات تملى على الفرد مجموعة من السلوكيات²⁵.

أو هي: عبارة عن طبقة هامة من المعتقدات يتقاسمها أعضاء المجتمع، وخاصة فيما يتعلق بما هو حسن أو قبيح، أو ما هو مرغوب فيه أو مرغوب عنه²⁶. ويمكنني أن أقسم قيم الرجل العربي المثل عند الشعراء الجاهليات إلى نوعين من القيم هما:

قيم اجتماعية: ولها رموز ومدلولات.

قيم أخلاقية: ولها رموز ومدلولات.

القيم الاجتماعية للرجل العربي المثل:

يرى علماء الاجتماع أن القيم الاجتماعية عند الأفراد يعبر عنها اهتمام الفرد وميله إلى غيره من الناس فهو يحبهم، ويميل إلى مساعدتهم، ويجد في ذلك إشباعاً له.

ويتميز الأشخاص الذين تسود عندهم هذه القيم بالعطف والحنان، والإيثار في خدمة غيرهم، والمساعدة على تماسك المجتمع، والدفاع عنه كما عند الخنساء:

بالسيدّ الحلو الأمين الذي يعصمنا في السنة العادية²⁷

وكما عند دختنوس:

ويعولها ويحوطها ويذب عن أحسابها

فالقيم الاجتماعية تمثل الجانب الحركي لمركز الفرد، ومكانته في المجتمع، أو هي وظيفة الفرد في الجماعة²⁸.

فالرجل العربي المثل عند الشعراء الجاهليات له خصائص معينة ميزته عن غيره من الشخصيات، وإن اتفق مع غيره في بعضها.

وتتمثل القيم الاجتماعية للرجل العربي المثل عند الشاعرة الجاهلية في نوعين من القيم: قيم الكرم ومدلولاتها، وقيم الشجاعة ومدلولاتها.

الكرم ورموزه ومدلولاته:

الكرم من القيم الاجتماعية المتصلة بالعتاء إطعاماً وإنفاقاً، والجانبان مهمان للمرأة الجاهلية لهذا نجدها اهتمت به كثيراً في شعرها.

لهذا نجده في شعرها له أوقات تدل عليه، وله حيوان يدل عليه، وله ماعون، وله إنسان.

وقت الكرم: (الشتاء).

العطاء وإطعام الطعام في كل وقت محبوب، وفي كل وقت يدل على الكرم، ولكن الشاعر الجاهلية اختارت وقتاً شديداً وصعباً للإنسان والحيوان، ينعدم فيه القطر ويجف فيه الضرع، فيكون إنفاق المال، وإطعام الطعام في هذا الوقت الشديد أدلّ.

فها هي الشاعرة ناجية بنت ضمضم الذبياني ترثي أباه الذي قتله عنثرة العبسي فتقول:

الواهب المال التلاد لنا ويكفينا العظيمة

ويكون مدركنا إذا نزلت مجلبة زميمة

وأحمر آفاق السماء ولم تقع في الأرض ديمة

فالوقت هنا وقت احمرار آفاق السماء، فالسما قد تغير لونها، ولم تمطر (ولم تقع في الأرض ديمة) والديمة هي: المطر لا رعد فيه ولا برق.

ففي هذا الوقت الشديد يهب أبوها المال التلاد.

وتقول تماضر بنت الشريد ترثي ولدها:

فمن للضيف إن هبت شمال مزعرة يجاوبها صداها

(الشمال) تهب وقت الشتاء، والشاعرة تجعلها ريحاً شديدة مدوية تتجاوب أصداؤها (يجاوبها صداها). فمن للضيف في هذا الوقت غير ولدها.

والإلاح على وقت الشتاء نجده كثيراً عند الخنساء في رثاء أخويها (معاوية وصخر) كما في قولها:

وإن صخرأ لكافينا وسيدنا وإن صخرأ إذا نشتو لنحار

فالشاعرة ناجية تجعل أباه في هذا الوقت يهب المال التلاد (الواهب المال التلاد) ومن غيره يفعل ذلك؟.

وتماضر ترثي ولدها فتقول: (فمن للضيف إن هبت شمال) لا أحد للضيف في هذا الوقت غير ولدها.

والخنساء تجعل صخرأ كافياً وسيداً، ونحاراً في وقت الشتاء: (إذا نشتو لنحار).

فالرجل الكريم المثال يهب المال التلاد في هذا الوقت، ويقري الضيف في هذا الوقت، ويكثر من النحر ليطعم الجائع.

فالشقاء وقت شديد يحتاج فيه الإنسان للطعام لمقاومة البرد، والطعام قليل لأنه لا مطر يسقط على الأرض فينبت الزرع، ويدرُّ الضرع (ولم تقع في الأرض ديمة). وفي هذا الزمان الصعيب ينقذ الرجل المثل الناس فيطعم الطعام، ويعطي المال.

الحيوان:

إن كان للكرم وقت، فله حيوان مرتبط به، يدل عليه، فالكلب يعوي ليسمعه التائه ليلاً، فيهندي إلى بيت الكريم، والناقة الكريمة النجبية تنحر لإطعام الجائع والضيف.

تقول الخرنق أخت طرفة ترثي أخاها:

وقدماً يعجل البازل الكوماء بالموت كشبه الحصير

يبغى عليها القوم إذا أرموا وساء ظنّ الألمي القرور

فهو يعجل بنحر هذه الناقة المسنة التي بلغت التاسعة، العظيمة لسمنها، يطعم بها القوم (إذا أرموا) أي أصابتهم سنون قليلة المطر والكلأ.

وعند الخنساء:

ويلٌ أم أعواد صخر أي أعواد للضيف والمعتفي والطارق الجادي

الخنساء تقول: ويل لأم أعواد، وهي الناقة المسنة الكاملة الخلق، ويلٌ لها إن جاء الضيف، أو المعتفي طالب المعروف، أو المجتدي طالب الجدا، أي العطية، فإذا ما أتى هؤلاء (فويل لأم أعواد).

الإنسان:

الإنسان هو المقصود بالإطعام وبالإنفاق، فالإنسان هو المحتاج الذي يطلب الجدا والمعروف، وهو الضيف الطارق ليلاً ونهاراً، وهو اليتيم، وهو الأرملة، وهو المجتمع كله إذا أصابته سنوات جدب وقحط.

كما رأينا عند الخنساء: (للضيف والمعتفي والطارق الجادي)، وقولها في رثاء صخر:

نعم الفتى كان للأضياف إن نزلوا وسائل حلّ بعد الهدء محروب

فهو للضيف إن نزل، وهو للوسائل المحروب الذي أخذ ماله بعد هدء من الليل، فلا ملجأ له غير صخر.

وتقول ناجية بنت صخر:

الفيته مأوى الأرامل والمدفعة اليتيمة

وعند سليمي بنت المهلهل ترثي أباهما وتفقدته:

لهفي عليكم إذا اليتيم تخاذلت عنه الأقارب أيما خذلان

والخرنق تجعل المجتمع كله في حاجة إلى الكريم لأنهم (أرملوا) وأصابتهم سنون لا مطر فيها، واحتاج الناس إلى منقذ للحياة، فأخوها لهذا اليوم. (بيغي عليها القوم إذا ما أرملوا)، فالقوم كلهم لا استثناء في حاجة إلى إطعامه فهو ينحر البازل الكوماء، إذا أرمل القوم.

ولا يقف الكريم عند هذا الحد ولكنه يدفع مهر العروس ويجهزها إذا ما فارقت أهلها مصاحبة زوجها. تقول الخنساء:

وظاعة في الحي لولا عطاؤه غداة غدت من أهلها ما استقلت

(استقلت) ذهبت ورحلت، و(الظاعة) المرأة المرتحلة. والمعنى أن صخراً دفع مهورهن، فتزوجن وارتطن.

البيت:

بيت الرجل المثال طويل العمد واسع كما عند الخنساء:

رفيع العماد طويل النجاد ساد عشيرته أمردا

فالخنساء هنا لا تصرح بسعة البيت ولكنها تكنى عمّا يدل عليه، وهو طول العمد (طويل العماد)، وصاحب البيت طويل (طويل النجاد) والنجاد: حمائل السيف. فالخنساء تريد أن تقول إن بيوتهم مرتفعة طوال، وأصحابها أشرف طوال.

وهذا البيت الواسع مألوف يرتاده الحاضر والبادي.

ماضي الهوى مرس حين القنا خلس وبيته مألّف للحضر والبادي

ماضي الهوى: أي صلب العزيمة، قوي الإرادة. والمرس: الممارس والمجرب للأمر. والخلس: المخالس الذي يطعن الطعنة السرية. والحضر خلاف البادي.

فبيته مألوف للحاضر والبادي، فهو بيت للجميع حضرهم وبدوهم، وللضعفاء والمحتاجين، وللمرأة والرجل، وللبيتيم والفقير، فالكل يأتي لحاجته.

وللسادة مجالس يشهدا خيار القوم، وفيها المشورة، والرأي والحكمة.

كما في قول الخنساء:

فيينا مجالس ما بلغوا حديثهم شم العرانيين قوادون للسرب

صفات السيّد: (الجسميّة).

إن كان هذا بيت الكريم، وهؤلاء ضيوفه، فمن هو هذا السيد صاحب البيت، وما صفاته الجسمانية (الخلقية) قبل الصفات (الخلقية) التي سأحدث عنها فيما بعد؟ صفات هذا الرجل أنه طويل، أبيض اللون، جميل، حلو، يروعك لجماله. وقد اهتمت الخنساء بهذه الصفات الجسمانية أكثر من غيرها فهي تصف صخراً بقولها:

أغر أبلج تأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

(الأغر) المشهور، و(الأبلج) الأبيض الوجه.

وقد تصرح بالجمال مباشرة فتقول:

جد جميل المحيا كامل ورع وللحروب غداة الروع مسعار

وهو يروعك لجماله وهيئته:

لكن أخي أروع ذو مرة من مثله تستبضع الباغية

(الأروع) الذي يروعك إذا رأيت لجماله. و(ذو مرة) ذو عقل، والباغية التي تبغي، فهي تطلبه لجماله؛ المرأة دقيقة في وصفها للرجل، ومثال ذلك وصف أم معبد للرسول ﷺ.

الشجاعة ورموزها ومدلولاتها:

لا يعقل أن يكون الرجل الكريم المثل جباناً، فكل أفعاله شجاعة، فإنفاق المال إلى حد الاتلاف شجاعة والدفاع عن العرض شجاعة، والدفاع عن القبيلة ومقاتلة أعدائها شجاعة، والحزم في الأمور والمضاء فيها شجاعة.

لهذا فقد اهتمت الشاعرة العربية بمعالم الشجاعة ووصف الرجل الشجاع، بالوصف المباشر، وبما يدل على شجاعته بوصف غير مباشر، كما رأينا ذلك في صفات الكرم ومدلولاتها.

وكما أنّ للكرم ما يدل عليه من أوقات، وحيوان، وإنسان، فكذلك للشجاعة أوقات، وحيوان، وإنسان، وآلات.

قيادة الحرب:

وأول صفات هذا الرجل الشجاع، قيادة الجيش وحمل لوائه وهذا ما نجده عند الخنساء:

حمّال ألوية هبّاط أودية شهّاد أندية للجيش جرّار

شدة الحرب:

والتعبير عن شجاعة الرجل المثل يأتي عن طريق شدة الحرب، وشدة بأسها، فهو يشعلها كما عند الخنساء:

وكان لزاز الحرب عند شبوبها إذا شمريت عن ساقها وهي ذاكية
وقولها:

جد جميل المحيا كامل ورع وللحرب غداة الروع مسعار
فهو يشعلها، ويذكي من نارها، وشمريت عن ساقها استعارة، وكأن الحرب إنسان
مشمر عن ساقه.
وعند سمية زوجة شداد:

فمن بعد شداد يحمي الحريم إذا الحرب قامت وسال العرق
صورة (إذا الحرب قامت) عند سمية شبيهة بصورة (شمريت عن ساقها) عند
الخنساء، فالصورتان استعارتان عن شدة الحرب، فهناك (شمريت عن ساقها) وهنا
(قامت).

الخيّل:

والرجل الشجاع عند الخنساء فارس ركاب للخيّل ويحسن قيادتها:
وقوّاد خيل نحو أخرى كأنها سعال وعقبان عليها زبانية
فهو يحسن قيادتها، وكأنها سعال أي حيات، وكأنها العقبان أي النسور.

الخصم:

الخصم هو العدو في المعركة، وهو خصم قويّ، عنيدّ، شديدّ، ولكن الفارس الشجاع
عند الشاعرة العربية يدعّهُ مخضباً بالدماء كما عند جنوب الهذلية:
والتارك القرن مصفراً أنامله كأنه من رجيع الجوف مخضوب
وعند الخنساء:

يذرُ الكميّ مجدلاً ترب المناحر منقّس
(الكمي) الفارس الذي يلبس السلاح فيستتر بالدرّوع والبيضة.
ولكن صخرأ يصرعُ، ويدعّهُ معفراً بالتراب.

المرأة في الحرب:

الرجل العربي يحمي حريمه، ويقاقل دونها، ويحذر من أن تسبى وتقسّم كما قال عمرو بن كلثوم:

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا

لهذا فإنّ الشاعرات العربيات جعلن من المرأة رمزاً لانتصار الممدوح الشجاع، فهو يدافع عنها كما عند الخنساء:

وبيض منعت غداة الصبا ح تكشف للروع أذيالها

فهو يحمي نساءه، ويمنعهن من الهرب، فلا تكشف أذيالها للهرب.

وكما أن الشجاع يحمي نساءه من السبى عند الخنساء، فإنه يسبى نساء غيره عند جنوب الهذلية:

والمخرج الكاعب العذراء مذعنة في السبي ينضح من أردانها الطيب

فإنّ الرجل الشجاع هنا وصل وسبى، وهزم أعداءه، فعجزوا عن الدفاع عن الكواعب الحسنات المنعمات المترفات.

وربما كانت المرأة الشاعرة هنا أقدر في التعبير عما يصيب المرأة في الحرب، فهي عند الخنساء فزعة تكشف أذيالها من شدة الفرع والرعب، وهي عند جنوب كاعب، مترفة، منعمة، ينضح الطيب من أردانها.

فالرجل الشجاع المثال يحمي نساءه من السبي، والرجل الشجاع المثال يهزم الخصم فيسبى نساءه البيض الكواعب المنعمات.

المحصلة:

وأخلص من حديثي عن الرجل المثال عند الشاعرة الجاهلية إلى أنه شجاع: قائد للجيش، يحمل لواءها (حمال ألوية) وأنه مشعل للحرب، يذكي نارها (للحرب مسعار)، وفارس ركاب للخيل (وقواد خيل).

وهو مقاتل شرس يصرع خصمه الكميّ مجدلاً، ومعفرأ بالتراب.

وهو شجاع يدافع عن نسائه فلا يصل إليهن أحد، (وبيض منعت)، وهو يسبى نساء غيره (والمخرج الكاعب العذراء مذعنة).

المبحث الثالث: استخلاص القيم الخلقية.

القيم الخلقية:

الأخلاق والفضائل ليست انفعالاً مؤقتاً كالغضب، والشهوة، إنما هي استعداد نفسي، بعضه موروث، وبعضه بالاكْتساب. فالمجتمع العربي عرف هذه القيم والفضائل، وتغنى بها، فقد عرف العفو، والحلم، والتواضع، والصبر، وشرف النفس، والصدق، والعدل، والوفاء، ودعا إلى هذه القيم وتمدح الشعراء بها، خاصة الشعراء.

فقد تغنت الشاعرة العربية بكثير من هذه القيم، كالشرف، والحكمة، والحلم، والصبر، والمروءة، والعفة، وغيرها من الصفات الخلقية الحسنة. مثال ذلك:

الشرف:

تقول سليمة بنت المهلهل في رثاء أبيها:

فأذهب إليك فقد حويت من العلى يا ابن الأكارم أرجح الرجحان
فهو ابن الأكارم، وحوى من المعالي والمكارم ما رجح به غيره.

ودختنوس بنت لقيط بن زرارة ترثي أباهما فتصفه بالشرف، فتقول:

ورئيسها عند الملوك وزين يوم خطابها

فأتمها نسباً إذا رجعت إلى أنسابها

وعند الخنساء:

مورث المجد ميمون نقيبته ضخم الدسيعة في العزاء مغوار

فرغ لفرع كريم غير مؤتشب جلد المريرة عند الجمع فخار

النقبية: الطبيعة، فهو وارث للمجد والشرف، وهو ميمون الطبيعة، وشجاع في (العزاء) أي في الشدة، ونسبه كريم غير (مؤتشب) أي غير مخلوط، وهو جلد صبور.

الحكمة ورجاحة العقل:

الحكمة قول صائب موجز، يصدر عن إنسان عبقرى خبير بطبائع النفوس، ملهم، يأتي بقول ترتاح له النفوس، وتصدقها، لأنه يعبر عما في داخلها وعجزت عنه.

وهذا ما نجده عند الفارعة بنت شداد في رثاء أخيها:

قوال محكمة نقاض مبرمة فتأح مبهمة حبّاس أورد

فهي تصفه بالقول المحكم الصائب، يحكم القول، وينقض المبرم، ويفتح المبهم.

حُلُوٌ حلاوئُهُ، فصلٌ مقالتهُ فاش جُمائلُهُ للعظم جِبَار

فهو حلو جميل، وهو ذو عقل، ومقاله فصل (فصل مقالته).

وهو مع الحكمة فصيح مُبين، قويُّ الحجة، راجح العقل، كما عند ناجية بنت
ضمضم تفخر بأبيها:

والدافع الخصم الألد إذا تفوض في الخصومة

بلسان لقمان بن عاد وفصل خطبته الحكيمة

فالشاعرة ناجية هنا تذهب إلى التراث فتجعل أباها في فصاحته وحكمته شبيهاً
(بلقمان الحكيم).

ودختنوس بنت لقيط بن زرارة ترثي أباها وتصفه بالفصاحة عند الملوك فتقول:

ورئيسها عند الملوك وزين يوم خطابها

فالحكمة، ورجاحة العقل، والقول الفصل، مع الفصاحة، والطلاقة من صفات السيّد
العربي المثال، والشاعرة الجاهلية تتمدح بهذه الصفة الخُلقية، التي تدل على رجاحة
العقل، وسدادة الرأي.

الحلم:

الحلم هو العفو عند المقدرة، وهو من الصفات الخُلقية النفسية التي تدل على ضبط
النفس، والتحكم، وعدم الاندفاع في القول والفعل. كما عند الخنساء:

والغافر الذنب العظيم لذي القرابة والممالح

بتعمد منه وحلم حين يُبغى الحلم راجح

فهو غافر لذنب القريب وإن عظم، وهو (يتغمّد) الحلم أي يغطيه ويستتره، ولا يرأي
به.

المروءة:

المروءة، ونجدة الضعيف، والملهوف، من القيم التي تمدحت بها الشاعرة العربية
كما عند سلمى بنت المهلهل ترثي أباها:

لهفي عليك إذا اليتيم تخاذلت عنه الأقارب أيما خذلان

فإن تخاذلت الأقارب عن اليتيم فإن أباها يكفله، فهو غيّاث لليتيم وعصمة للأرامل.

العفة:

من الصفات الخُلقية الرفيعة العفة قولاً وفعلاً، وقد مدحت الشاعرة العربية الرجل العربي المثال بالعفة فعلاً كما عند الخنساء تصف أباها:

لم تره جارةً يمشي بساحتها لربية حين يُخلي بيته الجار

فإذا ما غاب الجار عن بيته فهو لا يفاجئ جارته، ولا يدخل ساحتها فهو عفيف في حركته لا يتتبع الجارة، ولا يغافل جاره.

والعفة قولاً نجدها عند ضباعة بنت عامر القشيرية:

ولا منتزع بالسوء فيهم ولا قزح المقال ولا غشوم

فلا ينزع إلى السوء، ولا يقزح في القول.

محمود الخليفة:

ختاماً فإن الرجل العربي المثال عند الشاعرة العربية محمود الخليفة كلّها بلا استثناء كما عند الخنساء:

حامي الحقيقة محمود الخليفة مهديّ الطريقة نفاع وضرار

الخاتمة:

وبعد: فإن هذا البحث محاولة مني لاستخلاص صفات رجل عربي جاهلي مثال عند الشاعرة الجاهلية، ليقيني أن الشعراء الجاهليين قد تحدثوا عنه كثيراً في أشعارهم. لهذا فقد خصصت هذا البحث بتتبع صفاته عند الشاعرة الجاهلية، فلعلّ لها رأياً آخر، ولعلّ لها رؤية تناسب أنوثتها، ومكانتها في المجتمع العربي.

ودرست هذه الصفات عند مجموعة من الشاعرات الشهيرات. واستطيع أن أقول من خلال ما عرضته من أشعار في المبحث الثاني، ومن خلال ما استخلصته من صفات وقيم اجتماعية وخلقية في المبحث الثالث فإني أخلص إلى الآتي:

ملخص البحث:

الرجل العربي المثال عند الشاعرة الجاهلية جماعٌ من الفضائل والقيم الاجتماعية والخلقية.

وتتمثل القيم الاجتماعية في الكرم والشجاعة. وصفات الكرم التي تمدحت بها الشاعرة العربية، تمدحت بها من خلال علامات ورموز تدل على هذا الكرم مثل الوقت، والحيوان، والإنسان، والبيت، وغيرها، فلكل من هذه الرموز دلالاته التي تدل على الكرم، كما فصلت ذلك في المبحث الثاني، فالوقت هو الشتاء، والحيوان

هو الإبل التي تتحر، والكلب يعوي ليهتدي التائه إلى بيت الكريم، والإنسان هو الضيف، واليتيم، والأرملة، والطارق ليلاً وغيرهم.

أما بيت السيد الكريم فإنه طويل واسع يسع الجميع.

أما عن صفاته الجسمانية فإن السيد الكريم المثل طويل، أبيض اللون، جميل، حلو يروعك لجماله.

أما الشجاعة فهي صفة اجتماعية لها أهميتها في المجتمع العربي الجاهلي، فهو مجتمع غارات، وحروب، والمرأة العربية كثيراً ما تكون ضحية هذه الحروب. لهذا فقد اهتمت بها الشاعرة الجاهلية وتمدحت بها ولها علاماتها، ورموزها التي تدل عليها مثل الحيوان، والإنسان، والسلاح.

فمن علاماتها عند الشاعرة الجاهلية: قيادة الجيش، وحمل اللواء كناية عن الزعامة.

ومن علاماتها مُشعل للحرب، يذكي نارها، وهو فارس ركاب للخيل، ومقاتل شرس يصرع الخصم الكميّ الألد، وهو شجاع يدافع عن نسائه، ويمنعهن من الهرب والسبي، وهو منتصر في حروبه فيسبي نساء عدوه.

أما عن القيم الخُلقية فقد مدحت الشاعرة الرجل العربي المثل بقيم الترف والسيادة، والحكمة ورجاحة العقل وفصل الخطاب، ومدحته بالحلم والمروءة، وبالعفة، وغيرها من الصفات الخُلقية الحميدة.

والملاحظ أن الشاعرة العربية ألحّت في شعرها على القيم التي تحتاجها في الرجل العربي المثل، فالرجل الكريم المعطاء هو الذي يؤيها إذا احتاجت، ويطعمها إذا جاءت.

والرجل الشجاع هو الذي يحميها من السبي والضياع.

والرجل الحليم ذو المروءة هو الذي يحنو ويعطف عليها، والضعيف هو الذي يسترها.

فهي قيم اجتماعية وخلقية اهتمت بها الشاعرة العربية وتمدحت بها لأنها تمثل القيم المطلوبة والمرغوبة عند المرأة العربية في هذا المجتمع، مجتمع الحروب والغارات، والقحط والجذب، والحياة الشاقة فهو مجتمع يحتاج فيه الضعيف إلى الحماية والإطعام والرعاية والعطف.

Abstract

The Arab man, the ideal for the pre-Islamic poet, was a combination of virtues and social and moral values.

The social values are generosity and courage. The qualities of generosity with which the Arab poet was praised, she praised her through signs and symbols indicating this generosity, such as time, animals, people, the house, and others. The animal is the camels that sacrifice, the dog howls to guide the wanderer to the house of the noble, and the human being is the guest, the orphan, the widow, the one who knocks at night and others.

As for the house of the honorable gentleman, it is long and wide that can accommodate everyone.

As for his physical characteristics, the honorable gentleman, the example, is tall, white, beautiful, and sweet.

As for courage, it is a social trait that is important in the pre-Islamic Arab society, as it is a society of raids and wars, and Arab women are often the victims of these wars. That is why the pre-Islamic poet paid attention to her and praised her and her signs and symbols, such as animals, humans, and weapons.

Among its signs according to the pre-Islamic poet: commanding the army, and carrying the flag as a metaphor for leadership.

Among its signs is a igniter of war, who stokes its fire, a knight who rides horses, a fierce fighter who defeats the fiercest quantitative opponent, and he is brave who defends his women, and prevents them from escaping and captivity, and he is victorious in his wars and takes the women of his enemy.

As for moral values, the poet praised the ideal Arab man with the values of luxury, sovereignty, wisdom, soundness of mind, and separation of speech, and she praised him with forbearance, chivalry, chastity, and other good moral qualities.

It is noticeable that the Arab poet insisted in her poetry on the values that she needs in the example of the Arab man, for the generous and generous man is the one who provides her when she needs, and feeds her if she is hungry.

The brave man is the one who protects her from captivity and loss.

The gentle man with chivalry is the one who sympathizes with her, and the chaste is the one who covers her.

They are social and moral values that the Arab poet paid attention to and praised because they represent the values required and desired by Arab women in this society, a society of wars and raids, drought and drought, and hard life, as it is a society in which the weak need protection, feeding, care and kindness.

المصادر والمراجع:

1. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل - بيروت، ط5، 1981م، ج2، ص153.
2. ديوان الخنساء، شرحه: ثعلب، أبو العباس، أحمد بن يحيى بن سيار الشيباني النحوي ت291هـ، حققه: الدكتور أنور أبو سويلم، جامعة مؤتة دار عمار للنشر - عمان، 1988م، ص60 - 61.
3. أنظر شعر الخنساء، كرم البستاني، ص169.
4. ديوان الخنساء، ص63.
5. الخنساء شاعرة الرثاء، شامي يحيى، دار الفكر العربي للطباعة والنشر - بيروت، ط1، 1999م، ص31.
6. التعازي والمرثي، للمبرد، تحقيق: محمد الديباجي، مجمع اللغة العربية - دمشق، 1976م، ص27.
7. ديوان الخنساء، ص143 - 145.
8. الخنساء ظاهرة فنية جديدة في الشعر العربي، نوري حمودي القيسي، مجلة آداب المستنصرية، مطبعة دار المعارف - بغداد، 1976م، ص223.
9. أشعار النساء، للمرزباني، تحقيق: سامي مكي العاني، وهلال ناجي، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1995م، ج1، ص.
10. شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي الأصفهاني، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، 2003م، ج1، ص420.
11. ديوان عمرو بن معد يكرب، تحقيق: الطعان، ص103.
12. بلاغات النساء، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر بن طيفور، صححه وشرحه: أحمد الألفي، مطبعة مدرسة والده عباس الأول - القاهرة، 1908م، ج1، ص178.
13. أنظر من عيون الشعر، محمد إبراهيم نصر، سلسلة دار الرشيد للنشر والتوزيع، ص217.
14. ديوان الخنساء، ص330 - 344.
15. شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، جمعه ورتبه ووقف على طبعه: بشير يموت البيروتي، المكتبة الأهلية - بيروت، ط1، 1934م، ج1، ص82.
16. المصدر نفسه، ص80.
17. المصدر نفسه، ص69 - 70.
18. المصدر نفسه، ص70.
19. المصدر نفسه، ص39 - 40.
20. المصدر نفسه، ص40.
21. المصدر نفسه، ص44.
22. المصدر نفسه، ص51 - 52.
23. المصدر نفسه، ص48.
24. المصدر نفسه، ص80.
25. الأصول الفلسفية للتربية - قراءات ودراسات، أ. د. علي خليل مصطفى أبو العينين - د. محمد عبد الرازق - د. هاني محمد يونس بركات، دار الفكر للطباعة والنشر، ص231.
26. المصدر نفسه، ص231.
27. ديوان الخنساء، ص402.
28. أنظر أسس علم النفس الاجتماعي، د. مختار حمزة، دار البيان العربي للطباعة والنشر، 1982م، ص184. وأنظر كذلك الأصول الفلسفية للتربية - قراءات ودراسات، ص238 - 240.